الإشعاع الفكري والثقافي لتلمسان في المغرب الأوسط من القرن 6هـ إلى القرن 8 هـ:

الدكتور . بوهني مصطفى
جامعة منتوري 01– قسنطينة
bouhenni05@gmail.com

الملخص :

تلمسان من مدن الشمال الإفريقي الغربي، ذات موقع ممتاز لكونها ملتقى الطرق الرئيسية الرابطة بين الشرق و الغرب . وأكثر الأقاليم اعتدالا في المناخ، وأكثرها وفرة للمياه والنبات والحيوان .

إن موقعها المتميز جعلها تفتح أبوابها لتجارة أوربا، وتجارة المغرب والمشرق، وممرا للقوافل التجارية ، و تعد من أجمل المدن وأحسنها ، فقد وهبها الله طبيعة وافرة الجمال. أرضها اصطفتها الطبيعة لتبرز جمالها لمن يهواها ، ويقيم في حضنها ، تنعم بالمياه النميرة و الهواء الصحيح . وتعد المدينة من بين أعرق مدن التاريخ والحضارة في المغرب العربي تزخر بآثار كثيرة خلفتها حضارات الأمم والشعوب التي تعاقبت على المنطقة وظلت شاهدة على عمق ماضيها وعظم شانها.

الكلمات المفتاحية : تلمسان، الموقع ، الطبيعة ، الفكر، العمران، الحضارة، التاريخ ، الأدب .

Abstract :

Tlemcen city is situated in the north – west of Africa .It is a croassroad that links the East with the west .More than that ,it is a region adundanted with water ,plants and animals(fona and flore).

The location of Tlemcen opened offers her a trading doors with Europe and comercial caravanes from East and west.it is one of the most beautifuf countries, blessed with a god – given natural beauty.The inhabitants live in Tlemcen lap enjoy freh air and pur water.In fast,It is among the oldest historicale civilization in the Maghreb because of its rich culture wich comes from those who once lived here. Finally one could say that Tlemcen's deep past remained a witness to those who wille come.

Key words : Tlemcen, situation, Nature, thonght, civilisation, building, history, literrature.

عرفت الحركة الفكرية بتلمسان نشاطا هاما في عهد المرابطين ، فأصبحت مقرا لولايتهم في المغرب الأوسط ، إذ شيدوا القصر وجعلوه مقر للتواصي ، وبنو المسجد الأعظم الكبير (530هـ - 1136م) .

كما تدل عليه الكتابة الموجودة على قاعدة القبة الموضوعة أمام المحراب ، فهي أول قبة ذات تعاريف ظهرت في المغرب العربي ، ومنبره أقدم المنابر في المغرب الإسلامي ، كما تدل عليه الكتابة التي كتب في أعلى إطار بابه به "باسم الله الرحمن الرحيم أتم هذا المنبر في أول شهر رجب الذي من سنة سبعين وأربعمائة ل 14 يونيو 1097م ، وبناء الجامع الندرومي الذي يمتاز ببساطته وكتابته الكوفية التي تعد من أجمل الكتابات التي يرجع تاريخها إلى العصر الوسيط [1].

ولقد انتشرت العلوم المعرفية في تلمسان المرابطية بفضل اتساعها، واستبحار عمرانها ، وكثر الاهتمام بالعلوم الدينية ،وخصوصا الفقه لحاجة الناس إلى معرفة مختلف المسائل الدينية من عبادات ومعاملات ولحاجة الحكام إلى إصدار الأحكام الشرعية . و أصبحت مدينة تلمسان تستقطب العلماء، ورجال الثقافة من كل حدب وصوب، وأضحى مسجدها الجديد مؤسسة ثقافية.

وأدى توافد الكثير من رجال العلم إلى تكوين أجيال جديدة من العلماء من أمثال أبي القاسم المكنى بأبي الحسن والمعروف بابن الجنون الذي كان فقيها متحققا بأصوله ، عالما حافظا سيد الأجواء له تآليف عديدة منها:"المقتضب الأشقى في اختصار المستصفي [2] " .

وأبو مدين الغوث الملقب حاليا بسيدي بومدين والذي توفي بمدينة تلمسان سنة 594 هـ ، وهو من مواليد اشبيلية بالأندلس سنة 520هـ ، تتلمذ على يد أبي حرزهم ، و ابن حسن بن

غالب وقد استدعاه الأمير يعقوب المنصور إلى المغرب بعد عودته من بجاية أين باشر تعليمه ولا زال ضريحه مزار للسكان ودفن برابطة العباد ومن أشهر أشعاره :

بَكَتْ السَّحَابُ فَأَضْحكتْ لِبُكائِهَا زَهْرَ الرِياضِ وَفاضَتْ الأَنْهَارُ
وَقدْ أقْبلتْ شَمْسُ النَّهارِ بِحُلَّةٍ خَضْرا، وَفِي إسْرَارِهَا أَسْرَارُ
وأتَى الرَّبيعُ بخيْله وَجُنُوده فَتمَتَّعَتْ فِي حُسْنه الأبْصَارُ
وَالوَرْدُ نَادَى الوُرُودَ إلَى الجنى فتسَابقا الأطيَار وَ الأَشْجَارُ [3] .

كما وفد إليها أبو جعفر بن عزلون الأندلسي من أهل طليطلة روى عن أبي الوليد الباجي وهو أكبر كبار الصحابة من أهل الحفظ والذكاء استقر بتلمسان واخذ عن طلبة العلم إلى وفاته 542 هـ [4] .

والشيخ أبو قاسم الرعيني الشاطي الأندلسي المتوفى بالقاهرة 590 هـ ثم احمد بن عبد الله اللخيمي القاسمي المتوفى بمصر والحسن بن عمر البطيلومي المتوفى585 هـ .

وعرفت تلمسان نبوغ مشايخ عدة في ميدان التصوف كالشيخ أبو عمرعثمان بن علي الحسن التلمساني المشهور بالصلاح وتلاوة القرآن توفي 542 هـ إضافة إلى العالم الصوفي أبو القاسم البجائي الذي يعرف بعبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن، ألف كتابا في التصوف سماه قطب العارفين ومقامات للأبرار والأصفياء والصديقين توفي سنة 577 هـ [5].

وعقب إستيلاء عبد المؤمن بن علي على تلمسان(534 هـ 1139م) تزايد التوسع العمراني بها موازاة مع تزايد النشاط التجاري من جهة ، وانتشار التعريب والثقافة العربية الإسلامية من جهة أخرى، واستفادت تلمسان من جديد بعناية الموحدين لها حيث ابقوا عليها كمقر لولايتهم ومركز إشعاع وأعطاها عبد المؤمن الأولوية كمركز ثقافي [6].

ثم جدد عبد المؤمن مسجد تلمسان الجامع [7]، وبنا لنفسه بها قصر المشور سنة 540 هـ وعقد بها مجالس العلم ونشر التعليم الإجباري فاستعمل أماكن التعليم التي عرفت قبل عصرهم من كتاتيب ومساجد و رباطات وزوايا وأسس بها دار التعليم و إدارة الإقليم .

والكتاتيب هي أماكن المرحلة الأولى التي كان يتعلم فيها الصبية المسلمون مبادئ القرآن الكريم والكتابة ، ويأخذون بعد ذلك في حفظ القرآن الكريم ، ثم يتعلمون بين جدرانها أولويات علوم الدين واللغة التي تهيئهم لتلقي العلوم بالمساجد .وعمل عبد المؤمن على نشر مبادئ الموحدين ، فعمم التعليم بالكتاتيب والرباطات التي كانت تعبر من المعاهد العلمية الهامة [8] .

وقد عمل الموحدون على تنشيط الحركة الثقافية بتلمسان من خلال اهتمامهم بمختلف العلوم وخاصة الدينية والتي كان علم القرآن في مقدمتها ، إذ يعتبر المغرب الموحدي من أشد الأقطار المسلمين اهتماما بهذا العلم ، فاتخذوا كتاب الله إمام لهم .

ومما يدل على ذلك كون الخليفة يوسف بن عبد الله المؤمن الذي حكم بين (558هـ -1163 م) ، قد درس ونال حظا وافرا منه ،" فكان أحسن نطقا بقرآن الكريم" [9] ، إلى جانب علماء القراءة الذين اشتهروا في عبد المؤمن ويوسف ويعقوب المنصور بمصر والحسن بن علي بن عمر البطليومي سنة 585هـ .

كما اعتنى الموحدون بالحديث الشريف عناية فائقة فكان إمامهم المهدي بن تومرت ، محدثا حافظا غير انه استند إلى مهداويته إلى طائفة من الأحاديث ، وبرغم من استنادهم إلى

المذهب بني تومرت إلا أنهم اتبعوا مذهب مالك بن أنس ﷺ صاحب الموطأ.

وقد اهتم عبد المؤمن بالعلم والعلماء من خلال إشرافه على جمع آثار المهدية العلمية في التوحيد أو المهداوية أو الفقه ليكون في كتاب واحد سماه كتاب اعز ما يطلب وأفضل ما يكسب ... [10]، كما أمر برد الناس إلى كتب الحديث ، وفي مقدمتها الموطأ وحرص على

المساجد وبنائها في جميع ممالكه فكتب بذلك إلى جميع ممالكه فكتب بذلك الى جميع الطلبة ، واتبعه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، ومن الوظائف الفقهية التي ازدهرت في عهد عبد المؤمن وخلفائه وظيفة التوفيق .

وقد اهتم الموحدون فنشطت مختلف المعارف والعلوم والآداب المختلفة، فقد برز الاهتمام بالعلوم الاجتماعية من خلال ظهور مجموعة من المؤرخين ومن أشهرهم:

– البيدق أبو بكر الصنهاجي: مؤرخ قد يكون من صنهاجة المغرب الأوسط رافق ابن تومرت أثناء عودته من المشرق وألف كتاب وصف فيه رحلته ، وضمنته بعض أخبار المهدي في تومرت وعبد المؤمن ، توفي سنة 550هـ

– أبو علي بن الآشيري حسن بن عبد الله بن حسن: مؤرخ وأديب ولد ونشأ بتلمسان في عهد يوسف بن عبد المؤمن له مختصر في التاريخ سماه "نظم اللآلي فتوح الأمر العالي" توفي 596 هـ [11].

وفيما يخص العلوم الطبيعية فإنها كانت لا تزال في مرحلة الانطلاق في المغرب الأوسط ومن أشهر علماء الطبيعة :

– التيفاشي : شرف الدين أبو العباس احمد بن يوسف طبيب أديب وقاضي برع في العلوم الطبية ، وخاصة في الأحجار الكريمة في الأدب وألف كتاب "أزهار الأفكار في جواهر الأحجار " وكتاب الشفا في الطب عن المصطفى " [12] وغير ذلك من الكتب.

وبالتالي تلمسان قبلة للعارفين والدارسين منذ القرن الرابع تستقبل العلماء، وتتجه بخطى حثيثة نحو النمو الثقافي ، وقد عبر عن ذلك البكري في وصف لتلمسان القديمة أجادير بقوله :" ولم تزل تلمسان دار للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب إمام مالك بن أنس رحمه الله ." [13]. فتوافد عليها العديد من العلماء ومنهم :

– جعفر أبو عبد السلام التونسي: الذي قدم من الأغمات نزل ودرس بها "تلمسان" ، فكان من بين تلاميذه عبد المؤمن بن علي الكومي توفي 530هـ.

– أبو مُحَمَّد الدباغ: عبد العزيز إبراهيم اللخيمي توفي602 هـ .

– عبد الرحمن التيجيني: أبو عبد الله الرحمن التيجني من أهل إشبيلية نزل تلمسان ، وأخذ عنه الكثيرون من طلبة العلم توفي سنة 610 هـ [14].

ونجد أيضا من علماء تلمسان من ارتحل إلى بلاد أخرى لطلب العلم [15] أو الاستقرار في المدن المجاورة وهذا ما يظهر في المدن المجاورة وهذا ما يظهر في هذه الفترة قد عرفت حركة نشيطة في المجال الفكري والعلمي ، ومن بين علماءها من ولي قاضيا على مراكش مثل أبو عبد الله بن مروان مُحَمَّد بن علي الهمذاني فقيه وهراني الأصل نشا بتلمسان ابنه أبي عمران موسى الذي ولي قاضيا بقرطبة ومرسية ثم غرناطة توفي 921 هـ [16]، هؤلاء وغيرهم من العلماء من لم نذكرهم قد برعوا في الكثير من العلوم وقاموا إلى جانب التدريس في وظيفة القضاء فساهموا مساهمة فعالة في إشعاع الثقافي بتلمسان الموحدية والمرابطية.

وتجتمع هذه الأسباب وغيرها مما ذكرناها سابقا لتبين بروز تلمسان كمركز ثقافي في مرحلتها الأولى وتركيز الحياة الثقافية على العلوم الدينية خاصة الفقه والحديث، ثم تليها العلوم الإنسانية من لغة وشعر ونثر.

ويتجلى الاهتمام بالجانب الديني في انتشار التصوف بتلمسان وناحيتها خاصة بعد وفاة أبي مدين الحسيني الاشبيلي وذيوع الفكر الصوفي ، غير أن الأوضاع سوف لن تبقى على حالها

ثقافيا إذ تعرف ثغرا جذريا وانتشار العلوم المختلفة مع تشييد المراكز والمؤسسات التعليمية في عهد الدولة الزيانية على يد يغمراسن بن زيان العبد الوادي سنة(633هـ -1235 م) [17] .

بالرغم من الحياة السياسية المضطربة التي عاشتها الدولة الزيانية ، وخاصة عاصمتها تلمسان من فتن داخلية وحملات مرينية ، فإنها لم تخلوا من النشاط الفكري والعلمي التي تضافرت في بروزه جملة من العوامل الداخلية والخارجية لتجعل منها مراكز الإشعاع الثقافي ولعل من بين هذه العوامل :

أ- العوامل الداخلية:

1- تشجيع سلاطين بني زيان للعلم : تعتبر الدولة الزيانية من بين الدول المشجعة للعلوم النقلية والعقلية [18] وقد عرف ملوك بني عبد الواد بجهودهم المستمرة في نصرتهم للعلم ورعايتهم لفنون الآداب والعلوم هذه الميزة جعلتهم يشجعون الفقهاء والأدباء والعلماء ويستقبلوهم من مختلف الحواضر الإسلامية لاسيما الأندلس [19] . إذ يعتبر يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية أول من دشن تشجيع الحركة الفكرية والتعليمية بتلمسان حيث عمل على مجالسة الصلحاء والإكثار من زيارتهم ، وعقد المجالس العلمية في قصره إلى جانب اهتمامه بالمذهب المالكي [20] رغب رجال العلم في القدوم إلى عاصمته إذ تمكن من استقطاب أبي بكر مُحَمَّد بن عبد الله بن الخطاب المرسي الأندلسي 686 هـ - 1287م ، فأحسن نزله ومثواه وقربه من بساط العز ، وجعله صاحب القلم الأعلى [21].

وقد سار ملوك بني زيان على درب يغمراسن بحيث عملوا على تثبيت الأسس الثقافية والحضارية ، إذ شجع عثمان بن يغمراسن (668 -703هـ /1282- 1303م) العلوم العقلية و النقلية بنوعيها ، واحتفظ

بعلماء وفقهاء والأدباء ممن كانوا في عهد أبيه ، وأضاف مجموعة من الأدباء والشعراء من بينهم الشاعر الصوفي أبا عبد الله مُحَمَّد بن خميس (708هـ 1098م) وقلده خطة الكتابة (671هـ 1272م) [22].

أما أبو حمو موسى(708هـ /1308م - 718/ 1318م)، فقد جعل من تلمسان قبلة للعلم والعلماء وجلب الفقيهين الكبيرين ابنا الإمام أبي زيد وأبي موسى ، وبنى لهما مدرسة في المغرب الأوسط سميت مدرسة أولاد الإمام [23] .كما أسس أبو تاشفين الأول (718-737هـ /1318م- 1337م) مدرسة بقرب جامع الأعظم زودها بالكتب سميت باسمه فيما بعد واشتهر في عهده العديد من العلماء أمثال الشيخ الفقيه أبا موسى عمران المشذابي البجائي (745هـ -1245م). واشتهر في عهده أيضا أسرة بني الملاح ، وقاضي الجماعة أبو عبد الله المنظور(735هـ - 1335م) الذي تولى القضاء بتلمسان وكتابة السير والخطابات في مسجد الجامع فكانت له مكانة مميزة عند أبي تاشفين الأول [24].

ومع مجيء أبو حمو موسى الثاني(357هـ - 1352 م /791هـ -1389م) الشاعر والأديب وله واسطة السلوك في سياسة الملوك حرص على حضور مجالس الفقه والدين ومشاهدة مناظرة الشعر والشعراء ، فتميزت شخصيته بسمات أندلسية تجلت في سلوكه وطموحاته ، تألق بصفة خاصة كشاعر مفوه ثائر ممتاز والأديب يحب الأدباء ويجيز الشعراء فكان عصره من أزهى عصور الدولة الزيانية ازدهرت تلمسان خلالها حضاريا وثقافيا ، وبهذا فقد عمل سلاطين الزيانيين على تشجيع العلم بدفع رواتب الأساتذة وتقديم المنح للطلبة ، و كانوا يسلمون الإجازة لمن يستحقها ليحققوا التنافس في شتى العلوم فنصف المجزين بمنحها إلى ذوي الكفاءة والأهلية [25] .

2- الرحلة في طلب العلم :

لم يكتفي طلاب تلمسان بالمعارف العلمية المحلية ، فكانوا كغيرهم يرتحلون لإتمام تعليمهم إلى العواصم الكبرى ساء منها لعربية كغرناطة فاس مراكش أو الشرقية كتونس، القاهرة ودمشق وحتى بغداد علاوة على الحرمين الشريفين التي كان الداعي إليهما أداء فريضة الحج وأدى ذلك إلى تضاعف الدبلوماسي بتبادل الرسائل الإخوانية والديوانية .

حيث ينتقل الدارسون التلمسانيون لطلب العلم والاستفادة منه ولقاء كبار الشيوخ والعلماء فيقول ابن خلدون : إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتجلون له من المذاهب والفضائل تارة عالما وتعليما وإلقاء ، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة ، إلا أن الحصول الملكات غير المباشرة والتلقين اشد استحكاما وأقوى رسوخا ، فعلى قدر كثرة الشيوخ ، يكون حصول الملكات ورسوخها والاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم حتى لا يضن كثير منهم كثيرا منهم أنها

جزء من العلم ، ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد تميز الإصلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق التحصيل وتنهض قواه الرسوخ واستحكام في المكان وتصحيح معارفه " [26]. ولهذا ركز ابن خلدون بان الرحلة في طلب العلم إنما تكون لاكتساب الفوائد وكمال العلم بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال.فكانت الرحلة إلى طلب العلم في الدولة الزيانية من المسائل المحمودة ،ولم تنج عنها تبادل الآراء في مختلف العلوم العقلية و النقلية ، وتميز هذا الاتصال في تداول الكتب والمعارف والتنافس على المجالس ، والحلقات العلمية مع المساهمة فيما عندهم من علم ومن بين المؤلفات الشرقية

والأندلسية التي كانت تدرس لطلبة المدارس المغربية مختصر ابن الحاجب في الأصول والفروع [27] . ونتج عن ذلك تكوين كوكبة من الأساتذة والعلماء وتميزوا بغزارة التحصيل حتى أصبحوا حجة في العلوم النقلية والعقلية [28].

3- اهتمام بنو زيان بتشييد المؤسسات التعليمية :

أدت المؤسسات التعليمية على اختلاف أنواعها دورا بارزا أساسيا في تنشيط الحركة الفكرية بتلمسان ، وأولاها بني زيان أهمية كبرى ، وحرصوا على توفير موارد من المال الذي كان يغطى بالأوقاف على اختلافها فمنها ذات الطابع الخاص كإيقاف الملكية العقارية أما الأوقاف ذات الطابع العام فكانت ثروتها توجه نحو المؤسسات كالمساجد والمدارس والزوايا ، وكانت معظم ممتلكات الأوقاف تتواجد بالعاصمة الزيانية [29] ، ومما شجع هذه الحركة الوقفية اهتمام السلاطين بوقف ممتلكاتهم كما فعل الأمير الزياني ابن عامر إبراهيم (662 هـ – 1269م) يوقف كراء عشرين دكانا وعقارات لبناء مسجد أبي الحسن [30].

كما حدد الأملاك والعقارات بمدرسة العباد ويذكر اللوح المثبت بإحدى دعمات جامع أو مدرسة أبي مدين شعيب بالعباء ما يلي : ".....وحبس على الجامع المذكور والمدرسة المذكورة .... ولقد حدد النص مواقع الوقف على الجامع المدرسة بحيث يحتوي على سبعة عشر بستانا وجنانا في الضواحي العديدة بتلمسان ، زيادة على الحمام يدعى حمام العالية والذي يحتوي على دكاكين ..إلى آخره من الأملاك ." [31] إضافة إلى وقف الكتب التي تكون قليلة أو لا يستطيع الطلبة انتقائها والتي تساعد الطلبة على البحث ، وقد نسخ السلطان أبو زيد الثاني بيده نسخة من صحيح البخاري والمصحف الشريف،وكتاب الشفا للقاضي عباس وحبسها بالمكتبة التي أسسها لجامع الكبير بتلمسان ، وكانت عينة من الوقف موجهة لطلبة فتسخر لإطعامهم وكسوتهم ، كما بلغ الوقف أهمية بالغة في بلاد المغرب عامة وفي تلمسان

خاصة بحيث أنها المصدر الأساسي لتغطية نفقات المدارس من الرواتب والأساتذة وجاريات الطلبة ، وبالتالي حافظ على بقاء المؤسسات التعليمية.

4- إحياء دور التعليم وبناء المدارس:

أ- مدرسة ولدي الإمام: بنيت في عهد السلطان أبي حمو موسى الأول، وسبب بنائها أن الأخوين ابني الإمام دخلا تلمسان في عهد هذا السلطان فأكرمهما وابتنى لهما هذه المدرسة التي سميت باسمهما، وكان ذلك حوالي سنة 710هـ.

ب- المدرسة التاشفنية : بناها عبد الرحمن أبوتاشفين (718 هـ - 737 هـ) بجانب الجامع الأعظم وعين بها مدرسين من كبار العلماء من أمثال أبي موسى المشدالي ، وكانت هذه المدرسة تحفة فنية رائعة ، وقد وصفها المقري بأنها من بدائع الدنيا ، وللأسف أن يد الاستعمار الفرنسي قد أتت عليها فتم تهديمها دون مراعاة لما فيها من جوانب فنية وحضارية وذلك ليبني مكانها دار البلدية ، ثم نقلت بعض تحفها وزخارفها إلى متحف تلمسان ، والى متحف كلوني في باريس.

ج- مدرسة أبي الحسن المريني بالعباد: بناها أبو الحسن المريني في منطقة تسمى العباد سنة 748 هـ ، وذلك أيام استيلاء المرنيين على المغرب الأوسط.

د- مدرسة أبي عنان المريني : أسسها أبو عنان أبي الحسن المريني سنة 754هـ ، بجانب مسجد الولي الصالح أبي عبد الله الشوذي الاشبيلي الملقب بالحلوي .

هـ- المدرسة اليعقوبية : أسسها السلطان أبو حمو موسى الثاني (760 - 791هـ)على ضريح والده يعقوب وعميه أبي سعيد عثمان وأبي ثابت ، وتم تدشينها في شهر صفر سنة 765 هـ وقد احتفل بها السلطان واعتنى بها وأكثر عليها الأوقاف ورتب فيها الجرايات ، وكان الإمام أبو عبد الله الشريف واحدا من أكابر مدرسيها ، ومن سوء الحظ أن هذه المدرسة قد اندثرت كغيرها من المدارس [32].

ب- العوامل الخارجية:

1- توافد العلماء على الدولة الزيانية:

عرفت تلمسان هجرات عديدة ، وتوافدا كبيرا للعلماء من المناطق مختلفة خاصة من فاس وتونس والأندلس هذه الأخيرة التي تمثل هجرة علمائها أثرا بالغا على المجتمع التلمساني ، حيث اشتهروا بثقافتهم العالية وعلمهم الوافر الذي جعلهم يملؤون قصور تلمسان ، ويعملون على تسيير شؤون الدولة الزيانية إذ كان كتاب الأندلس

يمثلون جماعة متخصصة ينتقلون من خدمة الأمير إلى آخر حسب الظروف ، ويحتلون وظائف في دواوين الإنشاء ، أو في إدارة الأشغال وأحيانا يرتقون إلى مرتبة الوزارة [33] .

فقد تولى مُحَمَّد بن ملاح الوزارة والحجابة في عهد أبو حمو موسى الأول ، كم أنهم يمتازون عن سواهم في العلوم فاستفاد أهل تلمسان بمعارفهم العلمية والأدبية، وأضافوا إلى ذلك تعليم القرآن الكريم وتعليم الحديث الشريف والقاعد العامة لمختلف العلوم ودرسوا التعليم العالي بالمساجد والزوايا. هذا إلى جانب دور علماء الأندلس في مجالس المناظرة، والذين يعتمدون في أغلب الأحيان على النقل والرواية لا على الرأي والاجتهاد ، إضافة إلى جلبهم الموسيقى الأندلسية إلى تلمسان [34] .ومن بين العلماء الوافدين إلى تلمسان من بلاد الأندلس ما يلي:

– أبو عبد الله مُحَمَّد الملقب بلسان الدين الخطيب: الذي هاجر إلى تلمسان عام (773 هـ –1371م)، حيث كان مع سلطان المغرب، وأقام بها سنة كاملة، وغادر معه فيما بعد أن عبر عن تلمسان نثرا وشعرا.

– مُحَمَّد أبي العيش: هو أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الرحمن بن أبي العيش من أصل تلمساني،

برز في الفقه والأصول العربية خرجت عائلته من اشبيلية واستوطنت تلمسان ، ألف كتابا كبيرا في الأسماء الحسنى وآخر في تفسير القرآن ت (911 هـ – 1505م).

– أبو عبد الله بن الأزرق: هو أبو عبد الله بن علي الشهير بابن الأزرق الغرناطي ، ارتحل إلى تلمسان بعد السبعين وثمان مئة فهو الإمام العلامة الخطيب حجة الأعراف قاضي الجماعة بحضرة غرناطة [35] .

كما توافد على دولة بني زيان عدد كبير من العلماء القادمين من المغرب الأدنى ، خاصة من القرن 7– 8هـ / 13م–15م بسبب كثرة اعتناء ملوك تلمسان بالعلم ،ودور المؤسسات التعليمية في توطيد العلاقات بينها ، ومن العلماء الوافدين على الدولة الزيانية من الدولة الحفصية ما يلي :

–أبو موسى المشدالي البجائي: ولد عام (760هـ –1271 م) نشأ ببجاية و ارتحل إلى مدينة الجزائر ثم إلى تلمسان حيث كان يدرس فقه والحديث ، والمنطق والفرائض وبقي بها إلى أن توفي عام (745هـ –1344 م) .

– عبد الله سليمان بن قاسم المحمودي التونسي : اشتهر بالفقه والحديث ، ارتحل إلى تلمسان للاستزادة من العلم من مشاهير شيوخها ، وأجاز للعديد من العلم بها ثم عاد إلى تونس فتولى قاضي الأنكحة بها .

– أبو الفضل قاسم بن عيسى بن ناجي: أشتهر بالفقه والحديث أخذ من الكثير من الشيوخ تونسيين قيروان ، وتولى القضاء ببجاية [36] .أما عن العلماء الذين ارتحلوا من فاس إلى تلمسان فنذكر منهم النموذجين التاليين:

– إبراهيم بن مُحَمَّد المصمودي : أصله من صنهاجة بالمغرب غرب مكناسة أخذ العلم من فاس عن العبدوسي ، و الآبلي وغيرهما ، ثم نزل إلى تلمسان ، ولازم فيها أبا عبد الله

الشريف بالمدرسة اليعقوبية ، وبعد وفاته أخذ عن سعيد العقباني بالمدرسة التاشفنية ثم انقطع للعبادة والتدريس توفي عام (804هـ - 1401 م) ، دفن بروضة آل زيان وقد سمي الضريح والجامع باسمه.

- أبو عبد الله مُحَمَّد السلاوي: جاء تلمسان فارا من بني مرين ، ولم يكن له حظ في العلم ، فانكب على الدروس, وأخذ بها عن عمران ممنشدابي ، عن لتدريس بالمدرسة التاشفنية في عهد أبي تاشفين الأول توفي عام 737 هـ قتله المرينيون عند احتلالهم لتلمسان [37] .

نظرا للموقع الجغرافي الذي تحتله الدولة الزيانية يتوسطها للمغرب الأوسط فقد لعبت دورا كبيرا في توطيد العلاقات بينها وبين الدول المجاورة ، سواء الشرقية أو الغربية .

ولقد تميزت علاقتها مع بلدان السودان ومصر خاصة بالمودة والأخوة، فكانت طريقا للحجاج الوافدين من بلاد المغرب انتهز هؤلاء الفرصة ليحطوا الرحال بها فترة قصيرة أو طويلة

يأخذون بالعلم، والمعرفة من الأزهر ويتعرفون على الحضارة الإسلامية التي كانت مزدهرة بالقاهرة. وقد لعبت مصر دورا كبيرا في إثراء الحركة الثقافية.

وكانت الوراقة المغاربية من بين أهم الأروقة المشهورة بالأزهر من حيث يتخرج منها العلماء الذين كانوا يرتحلون إلى المغرب، واخذ هؤلاء العلماء يتعاونون مع رفقائهم، في حمل رسالة العلم .

كما عرفت تلمسان بدورها الثقافي المؤثر في المغرب الأوسط بل دورا مماثلا في خدمة المعرفة والعلم في جنوب الصحراء الكبرى إلى جانب القيروان وفاس ، فارتبط بني زيان بعلاقات ودية مع سلاطين كاتم وبرتو وسنغاي والمالي ، وكان طلاب هذه البلاد يتوافدون إلى تلمسان لتلقي العلم في مدارسها ومعاهدها الدينية التي حرص سلاطين بني زيان على رعايتها واختيار الأساتذة العاملين بها ، كما أن ركب الحجيج بلاد السودان الغربي كان يجد بتلمسان عونا عند المرور، وفضل البعض من أبنائها الإقامة النهائية وعدم العودة من أجل الدراسة في مساجدها كالجامع الأعظم الذي أقامه يغمراسن أو لتلقي العلوم الطبية على أيدي أساتذتها، فأصبحت محطة وصول طلاب السودان، فقد ارتحل العديد من العلماء إلى هذه المنطقة وكان لهم باع طويل في مختلف العلوم والمعارف.

1- علي الصلابي: صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي الجوهر الثمين في معرفة دولة المرابطين ، ج4، مكتبة الإمام بمنصورة الجامع الأزهر، ص 312.

2- أبو القاسم الحنفاوي: تعريف الخلف برجال السلف ، ج2 ، تقديم القاسم الحسيني ، مؤسسة الرسالة المكتبة موقع للنشر، الجزائر 1991، ص 258.

3- محمد مرناض: من أعلام تلمسان ، مقاربة تاريخية فنية ، دار الغرب للنشر والتوزيع 2003 ص 28.

4-محمد بن محمد: مركز تلمسان الثقافي بين أجادير الادريسية ، وتاجرات المرابطية العدد 3- 4 جويلية مؤرخ ، مجلة دورية يصدرها اتحاد المؤرخين الجزائريين2005 ، ص 110 .

5- عبد الله علام: الدولة الموحدية بالمغرب عهد عبد المؤمن بن علي، دارالمعارف ،مصر،1971 ،ص 65 .

6-عبد الحميد حاجيات: تلمسان كمركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأوسط ، مجلة الدراسات التاريخية العدد العاشر يصدرها معهد التاريخ ، بجامعة الجزائر السنة ، 1997 ص.183

7- عبد الله علام: الدولة الموحدية بالمغرب عهد عبد المؤمن بن علي مرجع سابق ، ص 65.

8- حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، الجزء الثالث، القاهرة 1968، ص 437.

9- أبي محمد عبد الواحد علي المراكشي: المعجب في تخليص أخبار المغرب ،شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري ، صيدا بيروت لبنان ،الطبعة الأولى (1426-2006)، ص03.

10- ابن تومرت : أعز ما يطلب ، تقديم وتصحيح عمار طالبي ، المؤسسة الوطنية للكتاب الرغاية ، الجزائر 1985 ، ص 03.

11- البيدق أبو بكر علي الصنهاجي: أخبار المهدي بن تومرت، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الرحمن حاجيات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1974، ص85.

12- عبد الحميد حاجيات: تلمسان كمركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأوسط ،مرجع سابق ص346.

13- البكري أبو عبد الله بن عبد العزيز المرسي: المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك نشره البارون دي سيلان ، باريس 1965 ص76-77.

14- عبد الحميد حاجيات: تلمسان كمركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأوسط ،مرجع سابق ص 37- 38 .

15- المرجع نفسه ص38.

16- أبي محمد عبد الواحد علي المراكشي: المعجب في تخليص أخبار المغرب ،المصدر السابق ، ص 245- 246.

17- مصطفى أبو ضيف عمر: القبائل العربية في عصر الموحدين وبني مرين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص 151.

18- عبد الرحمن بن خلدون: العبر وديوان المبتدأ في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصروهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6 دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان 1999 ص 226.

19- محمد بن عمرو الطمار: الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984، ص233-236.

20- الفرد بال: الفرق الإسلامية في شمال إفريقيا (من الفتح حتى اليوم) ترجمة احمد بدوي ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان الطبعة الثالثة 1987 ص251.
21- د.عبد الحميد حاجيات: أبو حمو الزياني حياته وآثاره ، مرجع سابق ص58.
22- يحي بن خلدون أبو زكرياء : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، مصدر سابق ، ص .190
23- د يحي بوعزيز : الموجز في تاريخ الجزائر ، مرجع سابق ، ص86.
24- النياهي أبو الحسن عبد الله المالقي : المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء و الفتيا تحقيق ليفي بروفنسال دار الكتاب العربي، القاهرة، 1948، ص134.
25- أبو العباس الغبريني : عنوان الدراية فيمن عرف من المائة ببجاية الجزائر، 1910 ، ص150.
26- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة ، المصدر السابق ، 437.
27- محمد المقري التلمساني: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، مصدر سابق ، ص134.
28- ابن مريم أبو عبد الله بن أحمد: البستان في ذكر الأولياء بتلمسان ، مصدر سابق ، ص 66.
29- أبو القاسم سعد الله من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر 16م - 20م، مرجع سابق ج2 ، ص24.
30- محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور ، مرجع سابق ، ص 111.
31- عبد العزيز الفيلالي: تلمسان في العهد الزياني، ج2 ، ص 449.
32- مجلة الأصالة العدد 26 جويلية ، أوت 1395 هـ 1975 م ، ص 138.
33- عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب المركز الثقافي العربي ، الدار العربي ، ط 2 ، 2000 ، ص 214- 215 ، و الحاج رمضان الشاوش باقة السوسان بالتعريف بحاضرة تلمسان ، المرجع السابق ص 403 .
34- محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور ، مرجع سابق ، ص 403.
35- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
36- عبد الحميد حاجيات: أبو حمو الزياني حياته وآثاره، المرجع السابق ، ص 05.
37- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.